ترتيلة

رواية

آيان راند

ترجمة: نوف الميموني

الفصل الأول

كتابة هذا الكلام إثم. الإثم هو التفكير بكلمات ما فكّر بها آخرون، وتدوينها في ورق لن يراه آخرون. هذه رذيلة وفساد. كمثل تكلّمنا بحديث لا يقع على آذان بشر سوانا. ونحن نعلم يقينًا ألا خطيئة أكبر من أن يفكر الإنسان أو يعمل وحده. انتهكنا القوانين. ففي القانون أنه لا تجوز الكتابة ما لم يأمر مجلس المهن بذلك. نسألهم المغفرة!

وما كانت تلك خطيئتنا الوحيدة، بل أتينا جريمة أخبث لا نعرف لها اسمًا. ولا ندري أي عقاب سيحل علينا إن عُرفت، وما من جريمة مثلها عُرفت في ذاكرة البشر ولا قوانين كُتبت عن جزائها.

المكان هنا مظلم. ولهب الشمعة لا يحرّكه هواء. ما من شيء يتحرك في هذا النفق سوى يدنا على الورق. نحن وحدنا هنا تحت الأرض. وحدنا كلمة مخيفة. تخبرنا القوانين أنه لا يجوز لإنسان أن يعتزل البشر، في أي حين ولأي سبب؛ لأن هذه هي أعظم معصية وأصل كل شر. لكننا تجاوزنا قوانين كثيرة. لا شيء هنا سوى جسدنا الواحد، ومن العجب أن نرى ساقينا ممددتين على الأرض، وظل رأسنا يهيم على الحائط.

الجدران مشروخة والماء الأسود يلتمع كالدم ويسيل في الصدوع في مجارٍ غائضة بلا صوت. سرقنا الشمعة من مؤونة دار الكنّاسين. وإن عُرفت جريمتنا فجزاؤنا عشرة أعوام في مقر الحبس التأديبي. ولكن هذا لا يهم، إنما ما يهم هو أن الضوء نادر ويجب ألا نهدره في الكتابة في حين أن حاجتنا إليه في عملنا الذي هو جريمتنا أمسّ. لا شيء أعزّ من عملنا، سرّنا، شرّنا، عملنا العظيم. لكن لا مناص من الكتابة لأننا نريد - نسأل المجلس اللطف بنا - أن نتكلم بكلامٍ لا يقع إلا على أذنينا، ولو مرّة واحدة.

اسمنا هو مساواة ٢٥٢١-٧، كما هو مكتوب في سوارنا الحديدي الذي نرتديه، كما يرتدي جميع الناس الأساور الحديدية في معاصمهم اليسرى وعليها أسماؤهم. عمرنا واحد وعشرون عامًا. طولنا ستة أقدام، وهذا عبء علينا لقلة البشر الذين يصل طولهم إلى ستة أقدام. كم مرة أشار المعلمون والقادة إلينا وقالوا عابسين: ثمة شر في عظامكم يا مساواة ٢٥٢١-٧، لأن جسدكم تجاوز أجساد إخوانكم في الطول. ولكن ليس بيدنا أن نغيّر عظامنا ولا جسدنا.

وُلدنا ملعونين. وهذه اللعنة تضلّنا وتدلّنا إلى أفكار محرّمة. تغوينا بأمانٍ يحرم على البشر تمنّيها. ونحن نعلم أن فكرنا باطل لكن ليس فينا إرادة ولا رغبة في دفعه عنا. وهذا هو ما نخشاه وما يحيّرنا، أننا نعلم ولا نقاوم.

نحن نطمع في أن نكون مثل إخوتنا، لأنه واجب على كل البشر أن يكونوا سواء. على بوابات مقرّ المجلس الدولي كلمات محفورة في الرخام عُلّمنا أن نرددها لأنفسنا متى ما داهمتنا شهوة:

الكل هو الواحد، والواحد هو الكل.

لا يعيش بشر دون «نحن» العظيمة.

جماعة واحدة، متكاتفة إلى الأبد.

نعيد هذا لأنفسنا مرارًا فلا ينفعنا قط.

حُفرت هذه الكلمات منذ أمد بعيد. الفطر في أثلام الحروف والعروق الصفراء في الرخام خلّفتها أعوام مما لا يعدّه البشر. وهذه الكلمات هي الحقيقة، ولا غير الحقيقة تُخطّ على مقر المجلس الدولي، فهو أصل الحقيقة نفسها. وهي الحقيقة التي نعرفها منذ «البعث العظيم»، أما قبل ذلك فلا ذاكرة حية تعرفه.

ولكن لا يجوز أن نتكلم عن الحياة قبل البعث العظيم، وإلا فجزاؤنا الحبس ثلاثة أعوام في مقر الحبس التأديبي. ولا غير كبار السن يتهامسون بأخبار ذلك الزمان في الليالي التي يقضونها في «دار عديمي النفع». يتسارّون عن أشياء غريبة، عن الأبراج التي تبلغ السماء، في «الزمن الذي يحرم الكلام عنه»، وعن العربات التي لا تجرّها جياد، وعن النور الذي يضيء بلا لهب. لكن ذاك الزمان فاسد، وقد مضى وانقضى، عندما أدرك البشر الحقيقة العظيمة وهي: أن كل البشر واحد، وأن لا إرادة إلا إرادة الجماعة.

كل البشر أخيار حكماء. لا أحد سوانا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، الذين وُلدنا بلعنة. لسنا مثل إخوتنا. ونحن حينما ننظر إلى ما مضى من حياتنا، نرى أنها كانت هكذا منذ كنا، وأن خطواتنا ألقتنا إلى معصيتنا

العظمى الأخيرة، إلى رذيلة الرذائل، مختبئين هنا تحت الأرض.

نحن نتذكر «دار المواليد» حيث عشنا حتى بلغنا الخامسة، كلنا معًا مع أطفال المدينة الذين وُلدوا في العام نفسه. كانت قاعات النوم في الدار بيضاء نظيفة عارية من كل شيء ما خلا مئة سرير. وكنا مثل بقية إخوتنا حينئذ، غير أننا ارتكبنا معصية واحدة: كنا نتشاجر مع إخوتنا. والعراك مع إخوتنا، في أي سن ولأي سبب، من المعاصي الموبقة. هكذا قال لنا مجلس الدار، فكنا أكثر من حُبس في القبو من بين الأطفال كلهم في ذاك العام.

لما كان عمرنا خمسة أعوام أُرسلنا إلى «دار الطلاب»، وفيها عشرة أجنحة لكل عام من أعوام دراستنا. والناس يتعلمون إلى أن يبلغوا الخامسة عشرة. بعدئذ ينصرفون إلى مهنهم. وفي دار الطلاب كنا نستيقظ عندما يُقرع الجرس الكبير في البرج، ونأوي إلى فرشنا لما يُقرع مرة ثانية. وقبل أن نخلع ثيابنا كنا نقف في قاعات النوم الكبيرة ونرفع أذرعنا اليمنى، ونقول بصوت واحد مع المعلمين الثلاثة الواقفين في رأس الصف: نحن لا شيء، والجماعة هي كل شيء. نعيش في ظل إخوتنا وبفضل إخوتنا. نحن موجودون من خلال إخوتنا ولأجلهم وبهم، وهم الدولة. آمين.

ثم ننام. في قاعات النوم البيضاء النظيفة العارية من كل شيء ما خلا مئة سرير.

نحن، مساواة ٢٥٢١-٧، لم نكن سعيدين في الأعوام التي قضيناها في دار الطلاب. وما كان السبب هو أن الدراسة كانت عسيرة على

فهمنا، بل لأنها كانت بالغة اليسر. إنه إثم عظيم أن يكون الإنسان مولودًا بذهن فطن. وليس من الفضل أن يكون الإنسان مختلفًا عن إخوته، ولكن أن يكون أفضل منهم هو الفسق بعينه. هذا ما قاله لنا المعلمون، وكانت وجوههم تكفهر متى ما نظروا إلينا.

ولهذا فإننا جاهدنا هذه اللعنة. كنا نحاول أن ننسى دروسنا، لكننا كنا نتذكر. كنا نحاول ألا نفهم ما يعلّمه المعلمون لنا، لكننا كنا نفهم قبل أن يشرحوا حتى. كنا ننظر إلى ائتلاف ٣٩٩٢-٥، وكانوا ولدًا شاحبًا بنصف عقل، فنحاول أن نقول ونفعل ما يقولونه وما يفعلونه، لعلّنا نكون مثلهم، مثل ائتلاف ٣٩٩٢-٥، لكن المعلمين كانوا يعرفون بطريقتهم أننا مختلفون. وكنا نُجلد أكثر من بقية الأطفال كافة.

كان المعلمون عادلين، فهم مكلّفون من المجالس، والمجالس هي صوت العدالة، لأن صوتها هو صوت البشر كلهم. وإن كنّا أحيانًا، في سريرة قلبنا الأسود، نندم على ما ألمّ بنا في يوم ميلادنا الخامس عشر فإننا نعلم أن ما حدث ذلك إلا بما اجترحناه. قد ارتكبناه معصية حينما لم نطع كلمات معلمينا. قال المعلمون لنا جميعًا: إيّاكم وعقد نياتكم على المهنة التي تودّون أن تقوموا بها بعد مغادرتكم دار الطلاب. سوف تشتغلون بما يفرضه عليكم مجلس المهن. لأن مجلس المهن يعلم بمنتهى حكمته أي مكان يحتاج إليكم فيه إخوتكم كما لا يمكنكم معرفته بعقولكم الحقيرة التافهة. وإن لم تكن ثمة حاجة إليكم لخدمة إخوتكم، فلا حاجة لإثقال الأرض بحمل أجسامكم.

لم نكن جاهلين هذه الحقيقة منذ كنا صغارًا، لكن اللعنة حطّمت إرادتنا. كنا مذنبين وبذا نعترف هاهنا: كنا مذنبين بارتكابنا «معصية

التفضيل». فضّلنا عملاً، وفضّلنا دروسًا على غيرها. لم نكن نصغي السمع إلى تاريخ كل المجالس المنتخبة منذ «البعث العظيم»، بل كنا نحب «علوم الأشياء». أحببنا المعرفة. رغبنا في معرفة كل الأشياء التي تكوّن الأرض من حولنا. وسألنا أسئلة كثيرة حتى حرّم المعلمون أسئلتنا.

نحن نعتقد أن في السماء وتحت الماء وفي النباتات التي تنمو أسرارًا. لكن مجلس العلماء قال إن لا أسرار فيها، ومجلس العلماء مطّلع على كل شيء. وقد تعلّمنا من معلمينا الكثير. تعلّمنا أن الأرض مسطّحة وأن الشمس تدور حولها فيحدث الليل والنهار. درسنا أسماء الرياح التي تهب على البحار فتدفع أشرعة سفننا العظيمة. تعلّمنا كيف نفصد الإنسان كي يُشفى من كل أمراضه.

أحببنا علوم الأشياء. وفي غمرة الظلام، في ساعة السر، عندما كنا نفيق في الليل ولا إخوة من حولنا سوى ما نتبينه من ظلال أجسادهم على الأسرّة، وما نسمعه من غطيط أنفاسهم، كنا نغلق عينينا، ونزمّ شفتينا، ونكتم أنفاسنا كيلا تفلت هزّة منا فيرى إخوتنا، أو يسمعون أو يخمنون، وتمنينا أن نُرسل إلى دار العلماء حين نتمّ أعوامنا.

من دار العلماء تأتي كل الاختراعات الحديثة العظيمة، ومنها الشمعة وهي آخر اختراع أُبتكر منذ مئة عام فقط، من صبّ كتل الشمع في أعواد فيها فتيل، وكذلك صنع الزجاج الذي يُوضع في نوافذنا ليحمينا من المطر. ومن أين عرف العلماء هذه المعارف إلا من دراسة الأرض وملاحظة الأنهار، ومن الرمال، ومن الرياح والصخور. ولو أننا التحقنا بدار العلماء لتعلّمنا منها نحن أيضًا، ولسألنا عنها، فهم لا

يحرّمون الأسئلة.

الأسئلة تعيينا. ولا ندري لم تحضّنا لعنتنا على البحث عن شيء لا ندري ما هو، نظل نبحث ونبحث دائمًا. ولا سبيل لنا في قمعها. إنها تهمس لنا أن أشياء عظيمة تحويها أرضنا، وأن من واجبنا معرفتها. ونسأل: لماذا نتوق إلى المعرفة؟ لكنها لا تمنحنا أي إجابة. يجب أن نعرف لأننا نريد أن نعرف.

فلذا تمنّينا أن نُرسل إلى دار العلماء. وبلغت بنا شدة التمني أن ارتعشت يدينا من تحت الغطاء في الليل، وأن عضضنا ذراعنا لعل ذاك الألم الآخر الذي لم نطق احتماله يكف. ارتكبنا المعصية وما كنا نجرؤ على رؤية إخوتنا لما حان الصباح. لا يجوز للبشر تمنّيهم أي شيء لأنفسهم. وحلّ علينا العقاب حين جاءنا مجلس المهن ليعطونا «مراسم حياتنا» التي تحدّد لأولئك الذين بلغوا الخامسة عشرة المهنة التي سيفنون بها أعمارهم.

قدِم مجلس المهن في أول أيام الربيع، وعقدوا جلستهم في القاعة الكبرى. فاجتمعنا نحن الذين بلغنا الخامسة عشرة وجميع المعلمين في القاعة الكبرى. وجلس أعضاء مجلس المهن على منصة عالية، وما قالوا لكل طالب سوى كلمتين. نادوا أسماء الطلاب، وعندما يتقدّمون أمامهم، واحدًا تلو الآخر، يعلن المجلس مرسومه: نجار أو طبيب أو طبّاخ أو قائد. فيرفع عندئذ الطلاب ذراعهم اليمنى ويقولون: كما يشاء إخوتنا.

فإن قرّر المجلس أن طالبًا نجار أو طبّاخ، ينصرف الطلاب المكلّفون

إلى أشغالهم وينقطعون عن الدراسة. أما إن قرر المجلس لطالب أن يكون قائدًا، فيتجه أولئك الطلاب إلى دار القادة، وهي أعظم دار في المدينة ولها طوابق ثلاثة. فيدرسون هناك أعوامًا طويلة، من أجل أن يصبحوا مرشّحين، وأن يُنتخبوا في مجلس المدينة، وفي مجلس الدولة، وفي مجلس العالم، بتصويت عام وحرّ من جميع البشر. ولكننا لم نكن نسعى إلى أن نكون قائدًا، وإن كان فيه من الشرف العظيم ما فيه، إنما تمنينا أن نكون عالمًا.

انتظرنا دورنا في القاعة الكبرى، ثم سمعنا مجلس المهن يدعو اسمنا: مساواة ٢٥٢١-٧. اقتربنا من المنصة بخطوات ثابتة ورفعنا بصرنا إلى المجلس، وكانوا خمسة؛ ثلاثة من الذكور واثنتان من الإناث. شعورهم بيضاء ووجوههم متغضّنة، كطين يابس في قعر نهر جاف. عجائز. أسنّ من رخام قداسة المجلس الدولي. جلسوا أمامنا ساكنين. ولم نرَ نفسًا يحرّك ثنايا شملاتهم البيضاء. لكننا علمنا أنهم أحياء لمّا تحركت إصبع يد أكبرهم، فارتفعت، ثم أشارت إلينا، ثم انخفضت. ولم يتحرّك شيء سواها، ولا حتى شفتا أكبرهم حين قال: كنّاس.

انقبضت أوتار عنقنا، ورفعنا رأسنا ننظر إلى وجوه المجلس، لكننا كنا سعداء. فالآن نستطيع التكفير عن ذنبنا. سوف نقبل مرسوم حياتنا، وسوف نعمل من أجل إخوتنا برضا وسرور، وسوف نمحو الخطيئة التي اقترفناها بحقهم، وإن كانوا لا يعلمونها فنحن نعلمها. أصابتنا سعادة وفخر بنفسنا أن انتصرنا عليها. فرفعنا ذراعنا اليمنى وقلنا بصوت كان الأعلى والأثبت في القاعة ذلك اليوم: كما يشاء إخوتنا.

وحدّقنا إلى أعين المجلس، لكن أعينهم كانت باردة، كبرودة قطع

أزرار الزجاج الزرقاء.

فكان أن انتقلنا إلى دار الكنّاسين. وكانت دارًا رمادية في شارع ضيّق. وفي باحتها مزولة شمسية يعرف بها مجلس الدار ساعات اليوم وأوقات قرع الجرس. فإن قُرع الجرس قمنا من أسرّتنا. نرى السماء من نوافذنا الشرقية باردة مكفهرّة. وقبل أن يتمّ ظل عصا المزولة نصف ساعة في تحرّكه نكون قد ارتدينا ملابسنا وتناولنا إفطارنا في قاعة الطعام، حيث وُضعت خمس طاولات كبيرة، على كل واحدة عشرون طبقًا فخاريًا وعشرون كأسًا من الفخار كذلك. ولما نفرغ من الإفطار نتوجّه إلى كنس شوارع المدينة بالمكانس والمدمّات. وبعد خمس ساعات، بعد أن ترتفع الشمس وتشتدّ، نرجع إلى الدار ونتناول الغداء في نصف ساعة، ثم نقصد الشوارع ثانيةً. نعمل خمس ساعات حتى تسودّ الظلال على الأرصفة، وتصير السماء زرقاء ذات ضياء مظلم، وهو ليس بضياء. ونرجع لنأكل عشاءنا ومدته ساعة واحدة. وبعدئذ يقرع الجرس فنمشي في صف واحد إلى قاعة من قاعات المدينة لحضور الملتقى الاجتماعي. وتفد أيضًا صفوف من رجال دور المهن الأخرى. توقد الشموع، ويقف أعضاء مجالس الدور المختلفة على المنبر، فيحدّثوننا عن واجباتنا وعن إخوتنا. وبعدها يعتلي المنبر قادة زائرون، فيقرؤون الخُطب التي أُلقيت في مجلس المدينة ذلك اليوم، لأن مجلس المدينة يمثّل كل البشر، ومن واجب كل البشر أن يعلموا. ثم ننشد التراتيل، ترتيلة الأخوّة، وترتيلة المساواة، وترتيلة روح الجماعة. السماء أرجوانية مخضّلة في طريق عودتنا إلى الدار. ولمّا يقرع الجرس نسير في صف مستقيم إلى مسرح المدينة لقضاء ثلاث ساعات في الترفيه الاجتماعي. فتُعرض على المسرح مسرحية تقودها جوقتان كبيرتان من دار الممثلين، تتكلمان

وتجيبان معًا، بصوتين مدويين. وتدور موضوعات المسرحيات حول الكدح وقيمته والخير الذي يجلبه. نعود بعدها إلى الدار في صف واحد مستقيم. وتكون السماء كمنخل أسود تثقبه قطرات فضة متذبذبة، كأنها تكاد تنفذ منه. وفَرَاش الليل تطرق زجاج فوانيس الشارع. نأوي إلى أسرتنا وننام، حتى يُقرع الجرس من جديد. وقاعات النوم بيضاء نظيفة عارية من كل شيء ما خلا مئة سرير.

وهكذا عشنا كل يوم من أيام الأعوام الأربعة التي خلت، حتى قبل ربيعين، يوم وقعت جريمتنا. وهكذا يحيا البشر إلى أن يبلغوا الأربعين، وما إن يبلغوا الأربعين حتى تكون أجسادهم قد بليت. لمّا يبلغون الأربعين يُرسلون إلى دار عديمي النفع، حيث يعيش كبار السن. ولا يعمل كبار السن، لأن الدولة ترعاهم. فيقضون أيام الصيف جالسين في الشمس، وأيام الشتاء حول الموقد. ولا يتكلمون كثيرًا لأنهم متعبون. وكبار السن يعلمون أنهم ميتون قريبًا. وإن وقعت معجزة وعاش بعضهم حتى الخامسة والأربعين، نسميهم «المعمّرين»، ويظل الأطفال يطيلون النظر فيهم متى ما مرّوا على دار عديمي النفع. وهذه هي حياتنا، كما هي حياة إخوتنا جميعًا، وإخوتنا الذين جاءوا من قبلنا.

وهكذا كانت ستغدو حياتنا، لولا أننا اقترفنا جريمتنا التي بدّلت كل شيء في حياتنا. لعنتنا هي التي وجّهتنا إلى جريمتنا. فقد كنّا من قبل كناسًا صالحًا، مثل إخوتنا الكنّاسين، لولا شهوتنا الملعونة في العلم. كنّا نرسل بصرنا مطوّلاً في نجوم الليل، وفي الأشجار والأرض. وعندما ننظّف فناء دار العلماء كنا نجمع قوارير الزجاج وقطع المعادن والعظام اليابسة التي يرمونها. كنا نتمنى الاحتفاظ بهذه الأشياء ودراستها، لكن لم يكن لدينا مكان نخفيها فيه. فما كان منّا إلا أن نحملها إلى مجمع مجاري

المدينة. حتى جاء اليوم الذي عثرنا فيه على الاكتشاف.

حدث الأمر قبل ربيعين. نعمل نحن الكناسين في فرقة من ثلاثة، وكنّا مع ائتلاف ٣٩٩٢-٥، أولئك الذين هم بنصف عقل، وثالثنا اسمهم دُوليّ ٨٨١٨-٤. وفي حين كان ائتلاف ٣٩٩٢-٥ فتى كثير المرض تصرعهم أحيانًا نوبات تشنّج، فيزبد فمهم وتبيضّ عيناهم، كان دُوليّ ٨٨١٨-٤ خلافهم. كانوا شابًا طويلاً قويًا، لهم عينان يلتمع فيهما البريق، وهو بريق الضحك. لا نقدر أن ننظر إلى دُوليّ ٨٨١٨-٤ ثم لا نبتسم. ولأجل هذا السبب لم يكونوا محبوبين في دار الطلاب، لأن الابتسامة لا تجوز بلا داعٍ. ولم يكونوا محبوبين كذلك لأنهم أخذوا قطعًا من الفحم ورسموا صورًا على الجدران، وكانت صورًا يضحك منها الناس. وما كان مسموحًا لأحد غير إخوتنا في دار الممثلين أن يرسموا صورًا، ولذا فقد أُرسل دُوليّ ٨٨١٨-٤ إلى دار الكنّاسين مثلنا.

نحن ودُوليّ ٨٨١٨-٤ أصدقاء. ولا يجوز قول ذلك لأن فيه معصية عظيمة، معصية التفضيل الموبقة، أن نحبّ فردًا حبًا يزيد عن حبنا لإخوتنا مجتمعين، لأن حبّ إخوتنا كلهم واجب، وكل البشر أصدقاؤنا. ولم نتكلم نحن ودُوليّ ٨٨١٨-٤ قط عن هذا الأمر. لكننا نعلم. نعلم عندما ننظر إلى عينينا. وعندما ننظر دون أن نتكلّم نعرف أمورًا أخرى كذلك، أمور غريبة لا نجد لها كلمات. هذه الأمور هي التي تخيفنا.

في ذلك اليوم قبل ربيعين، وقع ائتلاف ٣٩٩٢-٥ متشنّجين عند طرف المدينة، قرب مسرح المدينة. فتركناهم يستريحون في ظل خيمة المسرح، وغادرنا مع دُوليّ ٨٨١٨-٤ لنتمّ عملنا. فبلغنا نحن الاثنان

الوادي العميق خلف المسرح، وكان خاليًا إلا من بعض الشجر والحشائش. ومن وراء الوادي سهلٌ، ومن خلف السهل تقبع الغابة المجهولة، التي يحرم على البشر التفكير فيها.

كنا نجمع الأوراق والخرق التي حملها الهواء من جهة المسرح حين وجدنا مقبضًا حديديًا بين الحشائش. وكان قديمًا صدئًا بفعل مواسم المطر المتلاحقة. سحبناه بكل قوتنا لكننا لم نقوَ على تحريكه. فنادينا دُوليّ ٨٨١٨-٤ وحفرنا معًا التراب من حول المقبض. وفجأة انخسفت الأرض في الموضع الذي نحفره، وظهرت شبكة حديدية قديمة تغطي حفرة سوداء.

تراجع دُوليّ ٨٨١٨-٤ إلى الخلف. أما نحن فسحبنا الشبكة وانخلعت. ثم رأينا حلقات حديدية كأنها سلم مثبت في جدار التجويف، تفضي إلى ظلمة بلا نهاية.

قلنا لدُوليّ ٨٨١٨-٤: سوف ننزل إلى أسفل.

فأجابونا: لا يجوز هذا.

قلنا: لا يعلم المجلس بوجود هذه الحفرة، فالنزول فيها ليس محرّمًا إذًا.

وكان ردهم: ولأن المجلس لا علم له بهذه الحفرة، فلا قانون يسمح بدخولها. وكل ما هو غير مسموح بالقانون فهو محرّم.

لكننا قلنا: ومع هذا فإننا سوف ننزل فيها.

كانوا خائفين لكنهم ظلوا واقفين يراقبون نزولنا.

تعلّقنا بالحلقات الحديدية بأيدينا وأقدامنا. ولم نكن نقدر أن نتبين شيئًا تحتنا. ومن فوقنا ظلّت فتحة الحفرة التي نرى منها السماء تضيق وتصغر، حتى صارت بحجم الزر. وما أثنانا ذلك عن المضي. ثم لمست قدمانا القاع. فركنا عينينا لأننا لم نستطع أن نرى شيئًا. ولمّا اعتادت عيناننا الظلام لم نكد نصدّق ما رأيناه.

لا بشر نعرفهم يستطيعون بناء هذا المكان، ولا حتى إخوتنا الذين عاشوا من قبلنا، ومع هذا فهو من صنع البشر. كان المكان نفقًا واسعًا. جدرانه صلبة وناعمة الملمس، تبدو كأنها من حجارة، لكنها ليست حجارة. على الأرض خطوط طويلة رفيعة من حديد، لكنه ليس حديدًا، ملمسه مصقول بارد كالزجاج. ركعنا وزحفنا إلى الأمام، يدنا تتحسس الخط الحديدي كي نرى إلى أين يقود. لكن الظلام الدامس من حولنا لا ينفذ منه بصيص ضوء. لا شيء يلتمع فيه سوى الخطوط الحديدية، بيضاء مستقيمة، تدعونا أن نتبعها. لكننا لم نقدر على اتباعها وإلا فقدنا بقعة الضوء من خلفنا. فاستدرنا في الزحف ويدنا على خط الحديد. قلوبنا ترتجف في أطراف أصابعنا دون سبب. أدركنا حينها ما هو.

أدركنا بغتة أن هذا المكان من أطلال الزمن الذي يحرم الكلام عنه. فالأمر إذًا حقيقة، وذلك الزمن قد كان، وأعاجيب ذلك الزمن قد وُجدت. عرفت البشرية منذ مئات فوق المئات من السنين أسرارًا فقدنا نحن. وخطر لنا أن هذا مكان خبيث، وملعونون من يلمسون أشياء من الزمن الذي يحرم الكلام عنه. لكن يدنا التي تتلمس الخط ونحن

نزحف أمسكت الحديد كأنها لا تود الافتراق عنه، كأن جلد يدنا ظمآن يرتجي من المعدن سائلاً مجهولاً يجري في برودة مساره.

تسلّقنا إلى سطح الأرض. نظر إلينا دُوليّ ٨٨١٨-٤ فتراجعوا خطوة.

قالوا: مساواة ٢٥٢١-٧. إن وجهكم أبيض.

لكننا لم نستطع الكلام، فوقفنا ننظر إليهم.

تراجعوا أكثر كأنهم يخشون لمسنا. ثم ابتسموا ابتسامة غير سارة، بل كانت حائرة راجية. وما استطعنا مع ذلك الكلام. ثم قالوا: سوف نبلغ مجلس المدينة باكتشافنا فننال مكافأة.

عندئذ نطقنا. كان صوتنا قاسيًا، لا رحمة في كلماتنا. قلنا: لن نبلغ عن اكتشافنا مجلس المدينة. لن نبلغ أي بشر.

رفعوا يديهم إلى أذنيهم، فهم ما قد سمعوا كلمات مثل هذه قط.

سألناهم: أسوف تبلغون المجلس عنّا يا دُوليّ ٨٨١٨-٤ ثم تراهم يجلدوننا حتى الموت بعينيكم؟

انتصبوا فجأة وأجابوا: بل الموت علينا أحبّ.

قلنا: إذًا احفظوا السر. هذا المكان لنا. هذا المكان ينتمي إلينا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، وليس لأي بشر آخر على الأرض. وإن اضطررنا يومًا إلى تركه فسوف نسلّم حياتنا معه.

رأينا أن دُوليّ ٨٨١٨-٤ يحبسون دموعًا بين جفنيهم لا يجرؤون على ذرفها. همسوا وارتعش صوتهم، فكانت كلماتهم بلا شكل: إن إرادة المجلس فوق الجميع لأنه إرادة إخوتنا، وهي مقدّسة. لكن إن كان هذا ما تريدون فسوف نطيعكم. إنه لأحب إلينا أن نأتي الإثم معكم على أن نقدّم الخير إلى إخوتنا أجمعين. لتتنزل رحمة المجلس على قلبينا!

عدنا سائرين إلى دار الكنّاسين. وكنا نسير في صمت.

فكان أن دأبنا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، على التسلل كل ليلة، عندما ترتفع الأنجم ويجلس الكناسون في مسرح المدينة، والجري إلى مكاننا في الظلام. من السهل مغادرة المسرح، فبعد أن تطفأ الشموع ويظهر الممثلون على المنصة، لا نجد أعينًا ترنو إلينا ونحن ننزل من مقعدنا ثم نزحف تحت غطاء الخيمة. وبعد ذلك يكون من السهل أيضًا التسلل من بين الظلال والاصطفاف بجانب دُوليّ ٨٨١٨-٤ عندما يغادر الصف المسرح. والشوارع مظلمة ولا أحد يسير فيها، لأنه لا يجوز لأحد أن يمشي في المدينة إن لم يكن ثمة مقصد لسيرهم. نهرع إلى الوادي كل ليلة، ونزيح الأحجار التي راكمناها فوق الشبكة الحديدية كي نخفيها عن أعين الآخرين. كل ليلة، ولثلاث ساعات، نجلس تحت الأرض، وحدنا.

سرقنا شموعًا من دار الكنّاسين، وسرقنا أحجار قدّاحة وسكاكين وأوراقًا، وجلبناها إلى هذا المكان. سرقنا قوارير زجاجية ومساحيق وأحماض من دار العلماء. والآن نجلس في النفق ثلاث ساعات كل ليلة وندرس. نذيب معادن غريبة، ونخلط الأحماض، ونشرّح أجساد الحيوانات التي نجدها في مجمع مجاري المدينة. بنينا فرنًا من الحجارة

التي جمعناها من الشوارع. نحرق فيه الخشب الذي جمعناه من الوادي. فتلتهب ألسنة النار وتتراقص ظلال زرقاء على الجدران. ولا صوت بشر يزعج سكوننا.

سرقنا مخطوطات. وهذا إثم عظيم. فالمخطوطات ثمينة لأن إخوتنا في دار الكُتّاب ينسخون في عام كامل النص الواحد بخطوطهم المتناسقة. ولذا فالمخطوطات نادرة ولا تُحفظ إلا في دار العلماء. فنجلس نحن تحت الأرض ونقرأ المخطوطات المسروقة. مرّ عامان مذ وجدنا هذا المكان. وقد تعلّمنا في هذين العامين أكثر مما تعلمناه في الأعوام العشرة التي عشنا فيها في دار الطلاب.

تعلّمنا أشياء ليست مكتوبة في المخطوطات. حللنا ألغازًا لا يعرفها العلماء. تعرّفنا على بهاء اللامطروق، ونعلم أننا لن نبلغ نهاية بحثنا، وإن زادت على حياتنا حيوات. وإن نريد إلا الانعزال والدراسة، وأن يحتدّ بصرنا مع الأيام كحدة بصر الصقر، وأن نرى حقائق العالم كما نرى من خلال أحجار المرو.

عجيبة هي مسالك الشر. ننافق في وجه إخوتنا. ونعصي أوامر مجالسنا. لا غيرنا، من الآلاف الذين يسيرون في الأرض، لا غيرنا يعملون في هذه الساعة عملاً لا فائدة منه عدا أننا نرغب في عمله. إن خبث جريمتنا لا يستوعبه عقل بشر. وإن قسوة عقابنا، إن هم اكتشفوها، لا تحتملها قلوب البشر. ما حصل قط، ولا في ذاكرة أكبر المعمرين عمرًا، أن فعل بشر ما نفعله.

وبرغم هذا فلا أثقلنا خزي ولا طالنا ندم. نقول لأنفسنا إننا بائسون

خائنون. وبرغم هذا فلا همًا ينهك روحنا ولا خوفًا يطمس قلبنا. بل إننا لنحسب أن روحنا صافية، كصفاء بحيرة ما رمقتها عين غير عين الشمس. وفي قلبنا - وعجيبة هي مسالك الشر! - في قلبنا سلام ما عرفناه في أعوامنا العشرين.